الاسير والفراشة

بقلم الاديب اسكندر طحبي احد اعضاء المحفل الادبي في كلية القديس يوسف

. . . . . .

وكان الاسير راقدًا على الحضيض في ظلمة سجنه الهائل متكئًا على قطعة عمود من رخام قد اسودَّت من لمس يديه وهو يشخص بعينيه المغرورقتين بالدموع نحو كوَّة تنبعث منها بعض اشعَّة نور ضئيلة ويردِّد هذه الكلمات: « سيعلم الذين ظلموا اي مُنقلبٍ ينقلبون »

واذا بفراشةٍ دخلت عليه بغتة من تلك الكوَّة واخذت تحوم فوق رأسه مرفرفةً باجنحتها الذهبيَّة وتدوم حول عمامته السوداء كأنها تطلب تعزيتهُ في بؤسه واحزانه. فجاشت حينئذٍ اشجان الاسير وهطلت دموعهُ على خدَّيه مبلِّلةً وجهه الاغبر ولحيتهُ البيضاء. فانشأ يخاطبها ويقول:

يا خليفةَ النور من أملاكِ في القتَمِ أنيةَ الزهر ما تبغينَ في الرمَمِ
هل جئتِ ترثين منيَّ اخا سقمٍ ظهرتِ في صورة الاقبال والنعمِ
كنور نجم بدا في حندس الظُّلَمِ
لمَّا ابتعدِ ازلتِ الهمَّ والشجنا من بعد يأسي رجائي في الخلاص دنا
قد كنتُ غصنًا ذوى يبسًا بطرُّ المزُنا بل كنتُ كاليت في الظلماء قد دُفنا
فعادت الروح ثبَّت انعشت هِمَمي

ثمَّ حدَّق الاسير الى الفراشة فرآها ترفرف فقال:

ما لي اراكِ على ذا السور حائمةً وبين ظلمتهِ تسبين عائمةً
كأنني بكِ زهرَ الحقل راقمةً واحسرتاهُ فانتِ لستِ غائمةً
غير الكآبةِ والحرمانِ والألمِ

حينئذٍ اتت الفراشة واستقرَّت على قيودهِ ملوِّحةً بجناحيها البهيَّين تلويحًا بطيئًا فجعل الاسير يتأمل فيها ثمَّ انشد:

لستِ بنافرةٍ عن ظلِّ ذي كمَدٍ فأنتِ البلسمُ الشافي على كبدي
حلِّي قيودي فقد هُدَّت قوى جسدي وأعملي بجناحي اليوم لا لندي
قد ضقتُ ذرعًا بحمل الضيمِ والتُّهَمِ
قد كنتِ مثلي بحبس الهمِّ والكدرِ في بطن . قيلجةٍ محرومةَ البصرِ

واليوم افلتّ من اسر ومن خطر فتمرحين بوسط الروض والزهر
وروّاكِ ينبني بالخير والنعم

ناشدتك الله هبي واذهبي سحرًا أهدي سلامًا الى احبابنا عطرًا
واخبريهم بأنّ القلبَ قد فُطِرًا وسال دمعي على الخدّين منهمرًا
اذ ليس خلٌّ يُنَجّيني من النقم

قال الاسير هذا وخرّ مغشيًا عليه فذُعرت الفراشة واخذت ترفرف حول رأسه ترفرفًا بطيئًا كانها حزينة لسوء حظ هذا المسكين واتت واستقرّت على يده الجرداء ناظرةً بعينيها الزرقاوين الى رأسه المنحني ووجهه الشاحب اللون واذا بالشيخ انتصب واقفًا على الأقدام فارتعشت الفراشة وطارت واستقرّت على كوز مائه فانشد الشيخ يقول :

مَن لي برشف الماء من كأسه الذهبي حتى ابرّد ما بالقلب من لهبِ
يا ساقيَ الخمر دُر في الرغد والطربِ وأسقني غمرةً من ذلك العذبِ
قد طال حزني وسجني زاد في غمي

كم بتُّ ارصد نجم السعد يرمقني والطرف لم يكتحلْ من لذّة الوسنِ
والنائبات الوادي اغلت بدني وجرّعتني البلايا سُوْرةَ الحزنِ

لكنّهُ لم يقوَ على اتمام الشطر الاخير بل اخذت الزفرات تتصعّد من صدره حتى قطعت صوتهُ وارخت عزائمهُ فجلس على حجره وهو يبكي احرّ بكاء حتى جرت عبراتهُ كالزن مدرارًا ثمّ انشد :

وصيّرتني أليفَ البؤس كالهرمِ

خانت قواي وجند الصبر قد نفرتْ عني بعيدًا واسبابُ الرجا قصُرتْ
وكدت اقضي جوًى والنفس قد هجرتْ جسمًا ذوى وعظامي بالأسى نخرتْ
كأنما نشبت بي أسهمُ الرقمِ

ثم انهُ اطرق برأسه الى الارض وهو لا يعي لشدّة الافكار المتراكمة عليه ثم رفع عينيه ورأسهُ الى السماء واخذ ينشد ويقول وهو على آخر رمق :

مولاي كم مثقلٍ نادى برأفتكم وكم سقيمٍ شفاهُ لمسُ راحتكمْ
لقد سمت في الورى أعمال رحمتكمْ وأومضت في الدجى أنوار طلعتكمْ
جودوا بنصرٍ به احيا من العدمِ

قال هذا وسقط على الحضيض لا حراك به فذُعرت الفراشة وعادت ترفرف فوقهُ حزينة كئيبة ولكنّها يا للعجب العجاب ما عتمت ان ابصرت بجانبها فراشة اخرى

مكتسية بهاء وجمالًا لها جناحان ابهى وألطف من النسيم . . . فما تفرّست بها الّا ودنت منها وعلائم البشر والفرح تخفق على جناحيها واعتنقتها فرحةً وصعدت بها من ذلك السجن نحو الكوة واخرجتها من ديجور الظلام وغياهب التعاسة والذلّ الى حدائق النعيم وصفاء العيش الرغيد

حينئذٍ سُمع وقع اقدام في الدهليز المتدّ امام باب السجن وجلجل القفلُ وفُتح الباب ودخل السجّان ليتفقّد حالة الاسير فتفرّس به وجسّهُ ورفع رأسهُ وقال: لقد مات لقد مات

. . . . . .

نعم لقد مات الانسان الاول . لقد لفظت به الدنيا بعد ما كان يخوض في غمرة الجهالة يعوم في بحر الغواية . . لقد مات بالجسد ليحيا بالروح . . . خرجت الفراشة النصرانيّة ببهائها ونضارتها من فيلجة الدودة الوثنية . كانت الانسانيّة كدودة تتكع في غياهب الظلام والجهل حانية جيدها تحت وقر الخطيئة تبكي لعزّها الثابر منتظرة الامل الموعود لا يعزّيها ولا يفرحها شيء قائمة مقام البائس القنوط تُبصر الهُدى ولا تقوى على ادراكه

ارجو الحبيب ولا امل لغيره هيهات ان القلب فيه جريح

من اعلى كوّة سمائها هبطت عليها فراشة النور الازلي . كسرت بجناحيها اللطيفتين قيودها وغسلت عنها الخوبة بالتوبة فاضاءت في حنادس الكآبة مطالع السعد واشرقت في سماء القلوب كواكب الاقبال تفرّت اعناق الضلال بطوالع النور وانتقلت القلوب من وحشة الاحزان الى انس المسرّة والحبور . فتقشّعت غيوم الاضاليل وتكشفت حُجُب الاباطيل . أُعتق الانسان من ظلمة الاسر ظهر تخلص الكل من المطلع القبري مبرقعاً بالنور ومتسربلًا بالمجد والفخار . نشل الدودة الوثنيّة من ثوب اوثانها الدنس وكساها ثوب الفراشة النصرانيّة ثوب البر والكمال . رفعها عن الارضيّات ليسكنها جنات السموات . . . حينئذٍ اتى ابليس متفقدًا سجينهُ الذي كان قد كبّلهُ باغلال الخطيئة ورماهُ في حبائل العصيان وجسّهُ وصرخ نحو السماء قائلًا: لقد افلت السجين وحبطت آمال الجحيم